كيف تصلح الامة[1] ؟

ايها السادة والسيدات :

لا يزال الانسان المعروف في التاريخ البشري شبيهاً من بعض الوجوه باخيه السابق لعهد التاريخ . لا يزال الانسان ، المتمدن وغير المتمدن ، مسوقاً الى غرضه بعاملَين اولَيهما : الخوف والحاجة. فتراه يوماً يصول على اخيه ، او على خصمه ، دفاعاً عن النفس — دفعاً لشرٍّ حقيقي او وهمي — ويوماً يصول طلباً للقوت ، او طمعاً بالقوة

تدرج الانسان في استعمال السلاح

حمل الانسان الوحشي النبّوت في سبيل العيش ، ثم في سبيل الاستيلاء . مضى الى غرضه فائزاً ، صائداً ، حائلاً ، فعلمهُ الفشل الحيلة ، ولطفتْ من غريزته المشقات والآلام . على انهُ استمرَّ يحمل النبوت حتى بعد ان ادرك شيئاً من السر في امره وشرع يفكر في عواقب عمله

بطش في ساعات اليأس فكان قاتلاً او مقتولاً . وصال في ساعات الامل فكان غالباً ، او هارباً ، او موارباً

ادرك الانسان لذة العيش فلجأ الى الحيلة حبًّا بالحياة . ولكنهُ عند ما ادرك ان حيلتهُ الاولى امست سلاحاً بيد جاره ، بل بيد خصمه ، لجأ الى الفكر يستنبط غيرها هي درجات في الدفاع عن النفس ، ولك ان تقول في اصلاحها ، لان الفوز في الدفاع ممزوجٌ لصاحبه . اجل ، قد ارتقى الانسان من النبوت في سلاحه الى الحيلة ثم الى الفكر . ولكنهُ ظل مسلّحاً بها كلها لغرضه الاكبر ، ثم تسامحت بها الامم لاغراضها

ولكل نوع من هذه الاسلحة تاريخ في التطور والارتقاء. فمن النبوت : الى المدية الصوانية ، الى القوس والنشاب ، الى المنجنيق ، الى الرمح والسيف ، الى المدفع ، الى المدرعة الحربية ، الى الطيارة المدمرة — هو ذا تاريخ السلاح الاول منذ خرج الانسان من الغاب يمشي على رجليه الى هذا اليوم

ومن الحيلة البسيطة في الاستيلاء تدرج الانسان الى الحيلة الدينية ، فالحيلة الملكية ، فالحيلة الاستعمارية ، فالحيلة الانتدابية

---

(١) القيت هذه الخطبة في حفلة جمعية الشبان المسيحيين بيافا وبالقدس في ابريل ١٩٢٧ وفي حفلة جمعية تهذيب الشبيبة ببيروت في ١١ يناير ١٩٢٨ ولم تنشر قبلا

ومن الفكرة التي فيها خيرهُ فقط ارتقى الى الفكرة التي فيها خير اسرته ، فخير عشيرته ، فخير امته ، ثم الى الفكرة التي فيها خير الانسان على الاطلاق . هوذا تاريخ الثالث من اسلحته في الحرب وفي السلم

اجل ، قد ارتقينا في اغراضنا وفي السبل اليها . قد ارتقينا سلاحاً ، وحيلةً ، وفكراً . وفي هذا الارتقاء المستمر تنمو بذور الاصلاح

اما السلاح الاول ، الذي كان نبوتاً بيد الرجل الاول ، فقد يرتقي الى درجة علميّة هولها لا يطاق ، فيمسي مكروهاً من الامم كلها ، وبالتالي ممنوعاً ، فتخف في الاقل الحروب

واما الحيلة والفكر فيستمران في تطورهما حتى تصبح الاولى سلاحاً بيد الثاني ، وقد خرج من الدائرة الوطنية الى الدائرة الأممية — الى الدائرة الكبرى الشاملُ خيرها شعوبَ الارض اجمعين

اني ممن يعتقدون ويتيقنون اننا سائرون في هذا السبيل . اجل ، اننا سائرون الى الامام . فمن خير استتبع به كل قويٍّ من رجال الناب ، الى خير استتبع به الكهان ، الى خير كان محصوراً بالامراء والملوك ، الى خير احتكرتهُ الامة او الشركة التي كانت اقوى من سواها ، الى الخير الاكبر الذي سيشمل الامم كلها جمعاء

ولكننا لا نصل الى هذه الحجة الا بالاصلاح الذي فيه الصلاح والرقي ، اي الاصلاح الذي يقرن النشوء الطبيعي بالتطور الاجتماعي ، وبالارتقاء الخلقي

***

ان في الشرق اليوم اثراً للتطور الاجتماعي ظاهراً اكثر من سواهُ . اما النشوء الطبيعي الذي فيه القوة المادية ، والارتقاء الخلقي الذي فيه القوة الادبية ، فلا يزالان مقيدين بكثير من التقاليد والعقائد التي لا تلتئم وروح الزمان

اسباب التقهقر

واذا ما بحثنا اسباب التقهقر في الامم الشرقية اجمالاً وجدنا اهمها في ثلاثة هي : الجهل ، والكسل ، والادعاء

الجهل اولاً وهو الظلمة بعينها . الجهل هو الظلم وهو العبودية . هو التعصب والخرافة . هو الطاعة العمياء وهو الاثرة الاثيمة . هو الخوف ، والجبن ، والمذلة

الكسل ثانياً وهو الجمود بعينه . الكسل هو القناعة والفقر ، هو المرض والشقاء ،

هو الخداع — خداع النفس — والاستسلام ، والخمول

اما الادعاء فهو في تلك المظاهر الاجتماعية التي تكاد تكون محض شرقية ، اي مظاهر الفخفخة والابهة والمجد الباطل . الادعاء ! انما هو في الالقاب التي تشقها ، وفي المقامات التي تقدسها ، وفي الوجاهات التي نبذل من اجلها المال والشرف ، وفي العظمة الجوفاء التي يرتدي كل رئيس رداءها وان كان بالياً مرقّعاً

اني اسمعك تقول : ولكن في الشرق اليوم نهضة عامة سياسية واجتماعية . لست منكراً ذلك . فقد بدأت تنقشع غيوم الجهل والكسل . وقد شرع المصلحون المجددون يحفرون تحت صروح الادعاء . هذا صحيح

ولكنا لا نزال في بداية العمل ، ولا نظام فيه ولا تنظيم . بل نحن الآن خلال العمل جزء من الفوضى العامة . نرى الشرق القديم ، وقد تفلت من قيوده ، يسير يوماً مع التيار ويوماً يرجع الى الوراء . ونرى الشرق الجديد ، وقد بدأ يدبُّ ويدرج ، متلهياً بلعبه الجديدة العجيبة — بتقرير المصير ، والاستقلال ، والبرلمان ، والدستور

قد يكسّر الشرق هذه اللعب الجديدة ، ويعود الى تلك القديمة . ولكنهُ لا يستطيع ان ينبذ هبة الزمان وقد جاءتهُ من يدَي العلم والتمدن ، وهي منذ نصف قرن تغالب فيه الجهل ، والكسل ، والادعاء

التحول في الشرق

على ان الشرق لا يزال في حال التحوّل . وانهُ ليصعب على ادق المراقبين نظراً ان يرى ما في المستقبل من عوامل الرقي ، او يتكهن ببعض ما تكنّهُ الايام من اشكال الاحكام

أما ان الشرق قد نهض من سُباتهِ ، وفتح عينهُ البصر والبصيرة ، فما لا شك فيه وأما ان الاوربيين في الشرق اليوم راضون بذلك فما لا اجزم به

ان بين الفريقين اليوم خصومة شديدة سوف تسفر — وهذا هو عندي في منزلة اليقين — عن امرين ، اولهما : اعتراف الاوربيين بحقوق الشرقيين السياسية والاقتصادية في بلادهم ، والثاني : هو احترام الشرقيين للاوربيين كتجار ، واخصائيين ، ورسل للعلم والمدنية

اما الحالة الحاضرة في الشرق ، من الصين الى فلسطين ، فهي التي وصفتها بالتحول . ان في الشرق اليوم من النزعات السياسية الجديدة ، والنعرات الدينية القديمة ،

والعصبيات ، والقوميات ، والتحزبات ، ما تضطرم اضطراماً عمياً بل تشتعل كلها في بركان واحد هو بركان الوطنية

وفي الشرق المدارس ومعاهد العلم تُعَدُّ بالمئات ، وكذلك الصحف والمجلات . وفيه المطابع تطبع الكتب الحديثة ، الادبية والتاريخية والعلمية . وفيه اندية الادب والالعاب الرياضية والسيارات ، ودور الصور المتحركة ، والرقص والمحاضرات ، وفيه الشركات المالية لاستثمار المشروعات الوطنية . وفيه ايدٍ تغزل وتنسج ، وايدٍ تصنع القنابل والبارود

ان النار والنور يتباريان في الشرق اليوم . ولكن في تلك النار كثيراً من الحطب الاخضر ، وفي ذاك النور كثيراً من الدخان

الحطب الاخضر وما ادراك ما هو ؟ هو النقص في خُبر الزعماء وفي اخلاصهم . هو الهوس الطائش والتعصب الاعمى في الجموع المتألبة . هو تزلف الرؤساء الدينيين من اولي الامر الاعلى وتضحيتهم بمصالح الامة في سبيل مصالحهم الخاصة . الحطب الاخضر الذي يحجب دخانهُ النور انما هو الجهل والخوف ، والحاجة والرياء ، والحين والنفاق ، والاثرة والادعاء

هي حال الشرق اليوم . نار تأجج ونور يكاد يخنقهُ الدخان . هي حال الشرق الاقصى والادنى ، من الصين الى فلسطين

وكيف تُصلح هذه الحال ؟ كيف تخلص من الحطب الاخضر فيصفو النور ، وتبدو سُبُل الهداية قويمة جلية للناس ؟ وبكلمة اخرى كيف تُصلح الامة ؟

***

أشرت فيما تقدم الى تدرج الانسان في سلاحه ، دفاعاً وهجوماً ، من النبوت الى الحيلة الى الفكر . وهو لا يزال في سبيل الاصلاح يلجأ الى النبوت ، الى القوة . على ان هناك طريقة اخرى غير الثورة مثلاً ، وهي طريقة التطور الطبيعي ، بل طريقة الفكر وكل ما يتناولهُ من اساليب التعليم والتهذيب

الثورة الفكرية والثورة السياسية

اية الطريقتين أفضل ؟ قد تظنون ، ايها السادة والسيدات ، اني فيما اكتب واقول حاملٌ على القديم البالي ، والقديم الفاسد ، من العقائد والتقاليد . اني اطلب انقلاباً عامًّا في الحياة الشرقية ، ولست فيما اطلب سياسيًّا . انما طريقتي ادبية ، تهذيبية ، روحية

نعم ، اني أدعو الناس الى ثورة فكرية تذهب بما في الاخلاق ، والعادات ، والتقاليد ، والعقائد من فساد وسخافة وعفونة وضلال . الثورة الادبية قبل الثورة السياسية . والثورة الروحية قبل الثورة الاجتماعية . « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » فالمرء الذي يثور على ما ورث من الاجداد ، مما كان فاسداً اصلاً ومما افسده الزمان ، فيصلحهُ ، او ينبذهُ هو هو الذي يحق لهُ ان يثور اذا اقتضى الامر على الحكومة

وان هذا الرجل اذا خدم في الحكومة فهو يخدم الامة اولاً وآخراً . ان هذا الرجل وامثالهُ ليشعرون بما عليهم من واجب الخدمة للوطن

ولكن هذا الشعور الوطني السليم لا ينتشر في الامة ويعم الناس الاَّ بواسطة التهذيب الراقي والتربية الوطنية الحقة . هي ذي اسباب الاصلاح الدولي . على اننا نرى ، اذا ما جئنا نحدد الخدمة الوطنية والتهذيب الراقي ، ان النظر فيهما يختلف اختلاف المبادىء والنزعات السياسية والدينية

ما هو التهذيب الراقي

سأنتقل من التعميم الى التخصيص توصلاً الى الحقيقة الجلية التي يسهل فهمها والعملُ بها . وسأقتصر في البحث على هذه الامة ، امتنا العربية ، بل على اجزائها الشمالية الواقعة تحت الانتداب

قد تعددت المدارس وتنوعت في هذه البلاد السورية اللبنانية الفلسطينية . ولكل نوع منها خطة في التعليم ، ومبدأ في التهذيب ، لا يتفقان اجمالاً ومنهج غيرها . انما المدارس مثل المعابد في البلاد لها صبغة دينية او مذهبية ، فلا يجوز والحال هذه ان نفترض ان التهذيب الراقي هو واحد فيها كلها ، او انها كلها تعلم مبدأ واحداً فيما هو واجب الخدمة للوطن

سأعود اذن الى الاوليات ، الى الالف باء في الوطنية ، والى ما نحن فيه اليوم من حقائقها الواقعة

الشعور الوطني

ما هو الشعور بواجب الخدمة الوطنية ؟ اني قبل كل شيء اقول ان خدمة الوطن لا تجيء صافية الاَّ من ابناء الوطن . ولكن شعور هؤلاء بواجب الخدمة يتنوع اليوم اصلاً ، ويتفاوت شدةً ، واخلاصاً ، وتعويهاً . فمن الشعور السوري ، الى الشعور

اللبناني ، الى الشعور الاتحادي — ومن الشعور العربي ، الى الشعور الصهيوني ، الى الشعور الانكليزي — بل من الشعور الفاتر العام ، الى الشعور الحاد الخاص ، الى الشعور المتقطع المصطنع — من الشعور بالمنفعة ، الى الشعور بالعجز ، الى الشعور باليأس — هذي هي انواع من الشعور الوطني عندنا . بل هي درجات فيما يصح ان نسميه مرض الامة العصبي

الخدمة الوطنية

اما الخدمة الوطنية فقد تكون سياسية ، او ادبية ، او اقتصادية . فمن ذا الذي يشعر اليوم بوجوب الخدمة السياسية التي تستقيم فيها مصلحة الوطن قبل كل شيء — مصلحة هذه البلاد واهلها اولاً وآخراً ؟ ان هناك من يشعرون ولا شك هذا الشعور ، ولكننا لا نجدهم بين الذين يشتغلون اليوم بالسياسة

ومن ذا الذي يشعر بوجوب الخدمة الادبية التي لا يشوبها شائب من قديم النعرات ، وذميم التعصبات ؟ من ذا الذي يشعر بوجوب التنزه في الآداب عن السياسة المحلية او الخصوصية ، وعن العصبية الدينية او الاقليمية ؟ ان هناك افراداً يشعرون ولا ريب هذا الشعور ، ولكن نفوذهم اليوم لا يتجاوز دائرةً من العمل ضيقة النطاق

الخدمة الاقتصادية

اما الخدمة الاقتصادية ، واهم ما فيها الزراعة والصناعة ، فكلنا نشعر بواجبها ، وكلنا ننشده ، وقلَّ فينا من لا يترفع على العمل به . قلَّ فينا غير العاجز والمتحذلق . فما زال القلم اسهل استخداماً واشرف — في نظر الشبيبة المهذبة — من المحول والنول ، فكلنا ادباء وشعراء وسياسيون . كلنا وطنيون مصلحون — وطنيون على المنابر ، مصلحون على صفحات الجرائد ، مدبرون امور الدولة — امور الدويلات ! — بالفكر الثاقب — وقضيب الخيزران !

ليس بين الامم الكبيرة والصغيرة ، الشرقية والغربية ، امة قوَّالة مثل هذه الامة السورية . والكلام منفذ من منافذ الخطر . لذلك لا يخشى علينا من الانفجار الكلي العام مهما اشتد الضغط ومهما تعددت النكبات . ان مثلنا مثل ذاك الاعرابي الذي قيل لهُ : ان الدولة الفلانية تصول على العرب فغضب وقال : والله لاهجونها بقصيدة

ايتها السادة والسيدات ، لمن افصح الشعوب لساناً ، واغناهم بياناً . فلا عجب اذا كثرت في بلادنا المهن « الحرة » اي المهن الهينة . لا عجب اذا كثر فيها الادباء

والمحامون ورجال الدين . وكلهم يسارعون الى خدمة الامة . كلهم يدعون حبها . كلهم يتبارون ، يتفانون في سبيل اسعادها ! ولكنهم ، غفر الله ذنوبهم ، اخطأوا السبيل . فلو حملوا المعاول او البنادق لكانوا اخلص واشرف في عين الله والناس . الامة ! من اجل الامة اوالامة المسكينة تسلي نفسها بالاشعار ، وتضمد جروحها بالمقالات السياسية . الامة المسكينة تعيش شاكية شاكرة في ظل الانتداب ، وفي ظلال اطلال الثورة

اما الذين يشتغلون بالسياسة ، ويظنون انفسهم وطنيين يقومون بواجب الخدمة للبلاد ، فانا اذا امعنا النظام عن المقاصد والاسباب ، نرى تلك الخدمة محصورة بواحدة او اثنين من مصالح ثلاث ، اي المصلحة الشخصية ، والمصلحة الطائفية او الحزبية ، والمصلحة الاتحادية . اما الذين ينزهون من السياسيين عن الشخصيات — وهناك نفر من هؤلاء الافاضل — فهم يظلون مستمسكين باهداب الطائفة ، عاملين لخير الطائفة ، ولك ان تقول لخير العشيرة ، قبل خير الوطن . انما الطوائف اوطاننا

اجل ، انا اغنياء حتى في الوطن — عندنا منهُ اوطان ! وكل واحد منها يختص بفريق من الناس دون سواه . صكّه مستجل في المقام الديني الاعلى ، وموقّع في باريس ، او في لندره ، او في جنيف

وهناك اصحاب من وقع الصك ، ومن صدق التوقيع ، اصحاب « محرر المقاولات » واصحاب اصحابه . وهناك خصوم صاحب الصك ، وخصوم خصومه . اناس لا يرون في واجب الخدمة الوطنية غير المطاعن ، وتزييف الحقائق ، واثارة النعرات القديمة . واناس — واكثرهم من الشبيبة المتفرنجة — لا يرون في واجب الخدمة غير التكلم بلغة اجنبية ، ولبس البريطة ، وتعفير الوجه — وجه النفس — امام « محرر المقاولات » وامام اصحابه ، واصحاب اصحابه

هذا هو الظاهر والباطن من حقيقة الخدمة الوطنية ، ومن الشعور بواجب الخدمة . انها لحالة محزنة مؤلمة . ولا يغيرها في الحال احد من الناس ، ولا جماعة من الناس . لا يغيرها غير جيل جديد يتلقى العلم في مدارس وطنية عمومية ، ويتربى تربية جديدة . لا يغير الحال ، فيسلم شعور الامة ، ويستقيم فيهم الشعور بالواجب ، وتصفو الخدمة الوطنية ، وتنجو البلاد من براثن الفوضى والفساد ، غير التهذيب الراقي

[التتمة في الجزء القادم] امين الريحاني